كتاب

فاتحة الفتوحات العثمانية

Kitab Fatihat al-Futuhat al-'Uthmaniyah

المؤلف | المعرّب

محمد نامق كمال | عبد الله مخلص

Kamal, Muhammad Namiq

قد خصص نصف ريعها لمنفعة جمعية
الاتحاد والترقي العثمانيه

طبع بالمطبعة الوطنية بحيفا سنة ١٩٠٩

خطبة المعرب

هذه ثمرة شهية من ثمار الحرية جنيناها من رياض الآداب التركية وجعلناها هدية لقراء العربية

اجل : انها ثمرة من اشهى الثمرات لانها نفثة من نفثات اقلام رجل عظيم ولمحة من لمحات حر كريم بذر في قلوب العثمانيين بذور الحرية وسقاها بوابل فضله بل من عقيق دمعه فنمت تلك الشجرة ولكن بين طيات الصدور ونفخ في صور الوطنية فبعث من في القبور نريد به ذلك النابغة التركي نامق كمال بك

ان هذا الاسم لم يكن غريباً عن مسامع قراء العربية او بعيداً من مرامي افكارهم فقد ترجمه لهم الهلال الاغرّ في سنته الخامسة في العدد الخامس واتى بكل دقيقة يجب علَى المورخ والمترجم ذكرها مما لم يدع زيادة لمستزيد بيد ان الهلال قد انتابته في تلك البرهة وبعدها مخالب المراقبة وقامت في وجهه عراقيلها فانقاد لربقة اسرها ولم يتمكن من الانتشار في انحاء المملكة العثمانية باسرها فبقي اغلب المتشوقين

لمطالعة تاريخ حياة هذا الرجل العظيم والمتشوفين للوقوف على اعالي امانيه محرومين من الوصول الى غايتهم فضلاً عن ان قراء الهلال من الطبقة المتنورة الذين اذا لم يتسنَّ لهم مطالعة تراجم العظام بالعربية طالعوها باللغات الاخرى

هذا ما حدا بي الى تحرير هذه السطور وجعل هذه العجالة وقفاً للخاص والعام تذكاراً ابدياً لنعمة الحرية التي استرجعها العثمانيون يوم الخميس في ٢٤ جمادى الثاني سنة ١٣٢٦ هجريه و١٠ و٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ ميلادية واجلالاً لعظمة كمال وكماله العظيم

وكاني بتلك الروح الشريفه التي قضت نحبها ولم تجن ثمرات غرسها ولم ترَ عروس الحرية بارزة من خدرها وقد اشرفت من غرف الرضوان ورأت الجامعة العثمانية تضم هاتيك العناصر المختلفة والشعوب المتفرقة وراية الهلال تظللهم بظلها الوارف فقرت عيناً وطابت نفساً ورجعت الى مقرها الابدي آمنة مطمئنة راضية مرضية

اننا لانريد المغالاة في قولنا والمبالغة في روايتنا ونجعل كمال في مكانة منفردة ومنزلة رفيعة فلا يجارى ولا يبارى او انه عظيم ما فوقه عظيم لان ذلك يخالف الحكمة القائلة « وفوق

كل ذي علم عليم » ولكن البيان السحري والافكار الرقيقة والعواطف النبيلة التي كان يضمها قلبه ولسانه وحواسه لم تتسنَّ لاحد من قبله وربما من بعده من ابناء جلدته فانه قلب الكتابة التركية بطناً لظهر واطلق عقال العقول واسنة الاقلام من التقيد بغريب الالفاظ وشواذ الكلمات وشتات اللغتين العربية والفارسية ووضع الحجر الاول لاساس ادبيات الاتراك الحاضرة (وان طرأَ عليها الآن بعض التغيير فتلك سنة التدرج في مدارج الارتقاء) واحتمل في سبيل الحرية الفراق والسجن والابعاد مع علو جنابه وعزة جانبه شان العظيم الذي تصغر في عينيهِ العظائم كما اعترف به في منظومته التي رثى بها نفسه قبيل موته

ومن معجز اقواله بها التي تدل عَلَى معرفته مكانته بين مواطنيه قوله في آخر تلك المنظومة ما معناه :

« لو زالت انقاض قبري ودُرست معالمه فسيبقى اسمي حياً بين قومي وهذا عزائي الوحيد »

هذا ابعد مرمًى واقصى غاية يصل اليها المرء بين قومه وتلك حقيقة لامراء فيها فان اسم كمال لا ينكره التركي ولا يذكره الاَّ بكل تبجيل وستبقى لهُ تلك الذكرى جيلاً بعد جيل

ان كمال يُعدّ في مصاف شكسبير وولتر واضرابهما من رجال العلم وانصار الوطنية بل اعظم منهم مكانة لانه لم يتخرج في كليات عالية وبين قوم ذاقوا طعم الحرية وعرفوا معناها بل نبغ بنفسه بين امةٍ كانت احوالها المادية والادبية لاتسمح لها بالخروج عن جادة التقليد الاعمى والاتباع الاصم لأسلافها فقوّم اخلاقها واصلح عاداتها وبدل اصطلاحاتها وهذه معجزات قلما تتجلى الاَّ لاعاظم الرجال ودهاة العصر

اما ما اردت تقديمه لقراء العربية فهي رسالة صغيرة يسميها المرحوم « دور استيلاء الدولة العلية » فعربتها وسميتها « فاتحة الفتوحات العثمانية » لان هذه الرسالة فضلاً عن كونها اول نفثة من نفثات اقلامه فهي — كما يقول هو نفسه — تحوي وقائع قرنين (عصرين) جرت بملتقى قارتين ولم تزد صحائفها عن عدد الاصابع فكأنها سورة الفاتحة مكتوبة على حبة من الارز

وقد راعيت بالتعريب الاصل علَى قدر الامكان حفظاً لتشابيه الموءلف الكريم واستعاراته التي قلّ ان توجد بين الكتابات التركية قبله ولان بضاعتي قليلة فلا تساعدني على

اكساء الرسالة بردة عربية كما يجب

يقيم الغربيون التماثيل والانصاب لقادة الامم وهداتها اعترافاً بفضلهم واسوة حسنة لسواهم ويسمون الشوارع والمشاريع باسمائهم فتبقى تلك الاسماء حية خالدة منقوشة على صفحات القلوب باحرف من نور ونحن نكتب هذه السطور كي تكون واسطة لنشر فضائل كمال بين قراء العربية وذريعة لاحياء اسمه وقد صدّرت الرسالة برسمه وترجمة حياته اللذين سبق ذكرهما بانهما درجا في مجلة الهلال وان تكن تلك الترجمة لاتذكر طرفاً مما قاساه في سبيل الوطنية وما عاناه في الوصول الى عشيقته (الحرية) لتكون المنفعة اعمّ وجعلتها تقدمةً خاصة لشبل ذاك الاسد وسرّ ذاك الوالد علي اكرم بك والي ولاية جزائر بحر سفيد وخصصت نصف ريعها لمنفعة جمعية الاتحاد والترقي العثمانية التي قضت على الاستبداد والاستعباد وقوضت اركانهما وانتشلت الوطن العزيز من هوة الذل والهوان

فلي الامل مع العجز ان تحل من القبول محلاً وتروق لدى القراء الكرام · في ٢٠ شعبان سنة ١٣٢٦

حيفا : عبد الله مخلص

ترجمة

حياه محمد نامق كمال بك نقلاً عن مجلة الهلال
عدد ٥ سنة ٥ في ٢٥ جمادي الاول سنة ١٣١٤
وفي ١ تشرين ثاني سنة ١٨٩٦

محمد نامق كمال بك

اكتب كتّاب الاتراك واشعر شعرائهم في هذا القرن
ولد سنة ١٢٥٦ هجريّة وتوفي سنة ١٣٠٦ هجرية

نشرنا في الهلال الثاني والعشرين من السنة الثانية ترجمة حال مصطفى رشيد باشا ووعدنا حضرات القراء بنشر تراجم غيره من مشاهير العثمانيين الذين امتازوا بعلمهم او سياستهم او ادارتهم وخدموا اوطانهم ودولتهم فقياماً بالوعد وفراراً من نقل اخبار رجال دولتنا عن لسان الافرنج كلفنا صديقاً فاضلاً مقيماً في الاستانة العلية نثق بسعة اطلاعه في مثل هذه الشؤون ان يوافينا بترجمة احوال نوابغ العثمانيين فبعث الينا بترجمة حال كمال بك هذا وصدّرها بكتاب اقتطفنا منه ما يأتي قال :

« يسرّني كثيراً ان ارى مجلة الهلال الغراء عاملة على نشر تراجم مشاهير العثمانيين ولا ريب عندي ان ذلك يسرُّ السواد الاعظم من قرائها الادباء لما هنالك من الرابطة بين قراء اللغتين العربية والتركية اذ تجمعهم التابعية العثمانية فجئتكم بترجمة اكتب كاتب واشعر شاعر ظهر بين الاتراك في هذا القرن وساوفيكم بتراجم غيره من مشاهيرهم كشناسي افندي الاديب الشهير وفؤاد باشا وعالي باشا وابي الضيا توفيق بك واحمد مدحت افندي وغيرهم من رجال العلم والسياسة

« اما هذه الترجمة فقد استخلصتها من رسالةٍ كتبها رفيق صباه صاحب السعادة ابو الضيا توفيق بك الكاتب التركيّ الشهير ولكن هيهات ان اوفي مناقب صاحب الترجمة حق وصفها وليس لي قلم ابي الضيا ولا أُوتيت بلاغته وحسن بيانهِ ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كله فهاك محصّل ما قاله سعادته في رثاء كمال بك وترجمته :

« كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأَمر
فليس لعينٍ لم يفض ماؤُها عذر »

من كان يحسب ان العناية قدّرت لي ان اكون الراثي

لذلك الكاتب النحرير والعلامة الخطير او اكتب. ترجمة حاله بيدي، ووالله اني لوددت ان التقى حتفي قبل ان اقف هذا الموقف، ولو ان صاعقة نزلت بي لكان الامر اسهل عليَّ لان فقيدنا رحمه الله كان نبراسنا في العلم والفضل ومقدامنا في الشهامة والمروءة وقد كان ابًا للوطن العثماني روءوفًا به غيوراً عليه متفانياً في حبه وان القلم يقصر عن وصف تلك الاخلاق حق وصفها فضلاً عما يحول دون ذلك من شواغل الحزن والاسف وهي حال تقوم لدى حضرات القراء مقام العذر

ولد كمال بك المشار اليه في قصبة « تكفور طاغي » سنة ١٢٥٦ هـ وكان جده « ابو امه » محصلاً هناك والمحصل لقب لمنصب قديم في الدولة يقابله في الفرنساوية (Percepteur) فأرّخ عارف افندي احد شعراء تلك الايام مولده بهذا المصراع « ايردى شرف بودهره محمد كمال ايله » ومعناه بالعربيه «قد تشرّف هذا الدهر بمولد محمد كمال » وقد تسلسل كمال بك من بيتٍ عريقٍ في الحسب والنسب فوالده مصطفى عاصم بك وجده شمس الدين بك القرين الاول لجلالة السلطان سليم الثالث ووالد جده القبطان احمد راتب باشا من نوابغ الشعراء

ووالد هذا طوبال عثمان باشا الصدر الاعظم المشهور ومن اقوال صاحب الترجمة في فضل النسب « ان مزايا الحسب من الامور التي لا يستطاع القول انها مما لا يرغب فيه او يسعى اليه فان من خالط الناس واختبر اخلاقهم تحقق ان المولود من نسب رفيع افضل من المولود من اصل دني »

عَلَى ان طيب ارومة هذا الرجل لا تزيد شيئاً في تعريف فضله ولو فرضنا انه من اصل دني لكان كفوأً لاكتساب الفخر والمجد بجده واجتهاده وايراثها لاعقاب اعقابه »

فلما ترعرع دخل في مدرسة بيازيد فقضى فيها بضع سنين ثم انتظم في سلك تلامذة مدرسة (الوالدة) لكنه لم يمكث فيها الاّ بضعة اشهر فخرج منها سنه ١٢٦٨ھ وهو في الثانية عشرة من عمره فقضت الاحوال ان يسير والده بمهمة الى «قارصة» فلم يعد يستطيع مزاولة الدرس وذلك دليل على ان ما اشتهر به بعد ذلك من العلم والفضل انما بلغ اليه بالجد والاجتهاد من تلقاء نفسه لا بواسطة المدارس

واول ما جال في خاطره واخذ بمجامع قلبه في ابان شبابه الشعر فنظم القصائد الحسان وكان اهل الآستانة يتناقلون

اقواله ويتمثلون بها ويتحدثون بذكائه وظرفه حتى لقبوه « نامق »
واول شعر اشتهر به قصيدة نظمها وهو في السابعة عشر من عمره
قال في مطلعها :

ظهورانك كثرتي بر تونور خدادندر
تلون هيئت اشياده تأثير ضيادندر

معناه : انّ للكثرة « ربما يريد الجماعة والاتحاد » لوناً
او شكلاً حاصلاً من انعكاس من نور الله كما ان الوان
الاشياء في الطبيعة ناتجة عن انعكاس نور الشمس »

وسار كمال بك في نسق شعره عَلَى خطوات الشاعرين
التركيين المفلقين « نفعي وفهيم » فبلغ من ذلك شأواً عظيماً ونبغ
بالاشعار الحماسية والفخرية ومن قوله في الفخر

بزاول عالي همم ارباب جهد واجتهاد زكيم
جها نكيرانه بردولت چيقاردق بر عشيرتدن

معناه « نحن الألى نشانا من امة حقيرة وبجدنا واجتهادنا
انشأنا دولة عظمى فتحت العالم »

وفي سنة ١٢٧٧ ﻫ تولى تحرير جريدة « تصوير افكار »
وكان مع ذلك يزاول الترجمة في الباب العالي ومن هذا التاريخ

اخذت افكاره وآراؤه في الظهور فلم يغادر موضوعاً ادبياً او فلسفياً الا طرقه واجاد فيه فلقبوه كمال بدلاً من نامق وكانت جريدة «تصوير افكار» هذه فاتحة النهضة التركية الحديثة من حيث الانشاء والادب فهي اول جريدة تركية خاضت في المناظرات الادبية التي استلفتت انتباه اهل اللسان التركي واهمّ تلك المناظرات ماقام بينها و بين جريدة «روزنامهٔ حوادث» وكانت حداً فاصلاً بين الانشاء التركي القديم والانشاء الحديث ومن ذلك الحين اخذت الآداب الحديثة في الانتشار هناك وكثر اشياعها ومدعوها

واتفق اذ ذاك سفر العلامة شناسى مؤسس جريدة «تصوير افكار» الى باريس لدواع اقتضت ذلك فعهد بادارة جريدته الى كمال بك سنة (١٢٨١) هـ وكان في ريعان الشباب فاعتزل العلم والشعر وانقطع الى السياسة رغماً عنهُ ولايخفي ما في ذلك من المشقة مما لا يفلح فيه الا نوابغ الرجال القادرون عَلَى تكييف مواهبهم حتى تطابق وظائفهم . ولو اقتصر صاحب الترجمة على نظم الشعر لبلغ منه مبلغاً فاق به (نفعي) الشاعر الشهير ولكنه لو فعل ذلك ما استطاع ما استطاعه من خدمة

ملته ووطنه خدمة كان يسعى في سبيلها ليله ونهاره لا نقول ذلك امتهاناً للشعر فانا نقدره حق قدره ولكننا لا نرى له ما نرى للنثر من التاثير في ترقية شان الآداب ومن الشواهد عَلَى ذلك (هيكو وتيرس) العالمان الفرنساويان الشهيران فهيكو اشعر شعراء الفرنسيس في هذا القرن ولكنه لم ينفع امته بنظمه كما افادها تيرس بادبه وسياسته

« وجملة القول ان كمال بك اندفع بكليته الى السياسة وعلم الاخلاق وهما ركنا الادبيات فبث بين ابناء لغته روحاً عصرية نشطتهم وفتحت عيونهم وقلوبهم و بعد ان كنت لا ترى بين الاتراك عشرين كاتباً اصبح كتابهم يعدون بالمئات والالوف والفضل في ذلك لصاحب الترجمة فانه هو الذي احيا فيهم حب العلم وحبب اليهم الادب بما كان ينشره بين ظهرانيهم او يشنف به آذانهم من المقالات الرنانة في « تصوير افكار » وغيرها مما قد البس اللغة التركية حلة عصرية جديدة

« واول ما نشر من نفثات اقلامه رسالة «دور استيلاء » طبعت سنة ١٢٨٣ ﻫ قال العلامة ابو الضياء «وقد املى عليَّ في الساعة الثالثة من الليل في اليوم الحادي عشر من رمضان

المبارك سنة ١٢٨٢ هـ خبرت بها مقدرته على الانشاء فانه اوعز الي ان اتناول القلم والورق ثم اخذ يملي علي فقال «وقتا كه مقدما» فلم اتمالك عن التوقف محتارا فقال ما بالك لا تكتب فقلت لا اعرف حتى الان عبارة تبتدئ بلفظ (وقتا كه) وكنت اظن انك تخاطبني في شان من الشوءون فتبسم وقال اكتب ما اقوله لك وستعلم وما زال يملي علي وهو يخطر ذهاباً واياباً تارة يقف وطوراً يطوف غرف المنزل حتى انتهت الرسالة في الساعة العاشرة فجاءت كما قيل «كالفاتحة مكتوبة على ارز» وما زال ذكرها متغلباً على كل ما كتبه بعد ذلك

ومن مواهبه الخصوصية حدّة اللسان وقوة الحجة فانه لم يناظر كاتباً او خطيباً الا ظهر عليه وافحمه · ومن آثار فضله انه ادخل الآداب التركيه في دور جديد فقد كان كتّاب الاتراك منذ ستماية سنة سائرين على خطة واحدة في آرائهم وانشائهم فجاء كمال بك فنوّع الانشاء تنويعاً هو اساس النسق التركي الحديث

« ومما يذكر انه لم يستخدم قلمه للهجو ولا ادخل في انشائه الفاظاً بذيئه او معاني مخجلة وكان اذا كتب في المواضيع الدينية

مثّل الحقيقة فيها تمثيلاً واضحاً يفتن المطالع ولو كان من المعتلين»
وكان يستخدم الفاظاً لغوية لم تألفها العامة لكنه يسكبها في قالب
يسهل عليهم فهمها

« وكان كثير المطالعة دقيق التنقيب والبحث حتى قيل انه
لم يغادر كتاباً تركياً او فارسياً مطبوعاً او غير مطبوع من موءلفات
الاتراك او ما ترجموه عن الالمانية والفرنساوية والانكليزية
الا طالعه وتبحر فيه وكان قوي الذاكرة الى حدٍّ يفوق التصديق
حتي يكاد لاينسى شيئاً نظره او سمعه فقد يتلو عليك الوفا من
الاشعار الفارسية والتركية والعربية والافرنسية وكان متمكناً
من الفقه وعلم الكلام مدركاً لا كثر المسائل الغامضة المتعلقة بهما
وقد طالع علم الحقوق على العلامة الفرنساوي الشهير (اميل
اغولا) ودرس في الاقتصاد والسياسة اما التاريخ فكان من
اكبر علمائه وعاك اشهر موءلفاته وترجماته

« تراجم الاحول » ترجمة صلاح الدين الايوبي والسلطان
سليم والفاتح وامير نوروز

« حكايات وروايات » وطن « وهي رواية ترجمت الى اللغات
الالمانية والروسية والفرنساية » وكل نهال وعاكف بك وزوالي

چوچق وانتباه وجزمی

(رسائل) دور استیلاء وبارقهٔ ظفر وقانیزه وحکمة الحقوق ومکتوب الى عرفان باشا ویه بریزون موءاخذه سی وتخریب وتعقیب ومقدمة جلال وبهاردانش ومنتخبات تصویر افکار

(مقالات متنوعه) تصویر افکار ومخبر وحریت وعبرت وبصیرت وحدیقة واتحاد وصداقت وغیر ذلك من المقالات التي كان يكتبها الى اصدقائه وفيها الحكم الادبية والفلسفية

(ترجماته عن اللغات الافرنجية) شرائط الاجتماع تأليف روسو وروح الشرائع (تأليف مونتسكيو)وبعض كتابات باكو وفولني وغيرهما وقسم كبير من كتابات كوندرسه تحت عنوان (تاريخ ترقيات افكار بشر)

وكان في اثناء اعماله هذه مشتغلاً بتاليف التاريخ العثماني وهو تاريخ مطول بحث فيه عن عظمة الدولة وما مرت به من الادوار من اول عهدها الى الآن . له مقدمة يصح ان تسمى وحدها تاريخ الاسلام لانها حوت كل ما وقع للمسلمين من البعثة الى ظهور السلطنة العثمانيه وكل ما رافق ذلك من الحوادث

في اسيا وافريقيا والمقدمة المشار اليها مكتوبة على نحو الف وخمس مئة طلحية من الورق ولكن من موجبات الاسف ان مطالعتها منعت ثاني يوم ظهورها لوشاية بعض ذوي الاغراض حفظاً لاثار هذا الفاضل نرجو ان يعاد نشرها مع ما تمّ تاليفه من هذا التاريخ وهو اربعة اجزاء تنتهي بوقائع السلطان سليمان القانونى (١)

وفي الختام لايمكننا ايفاء هذا الرجل حقه وتقدير اعماله حق قدرها الا اذ اوتينا بلاغته وفصاحته وذلك ليس لنا فاكتفينا بما تقدم وكانت وفاته بعلة الخناق الصدري التي لم تمهله الا عشرة ايام فقضى بعد ظهر الثامن والعشرين من ربيع الاول سنة ١٣٠٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة « إِنتهى عن ابي الضياء »

---

(١) ان هذا التاريخ مؤلف من اثني عشر جلداً بحجم القاموس فيها اربعة عشر الف صفحة وموجود الآن عند اكرم بك نجل المرحوم فالأمل معقود بهمة المشار اليه ورجال النهضة الوطنية عَلَى طبعه وتعميم نفعه « للمعرب »

فاتحة الفتوحات العثمانية

ظهر الاسلام من صميم بلاد العرب وانتشر في الآفاق بسرعة غريبة كأنه فلق الصبح واخذ بالتدرج في مدارج الرفعة والمنعة الى ان غشيته عواصف الاضطراب في الشرق واكتنفته مظالم اهل الصليب في الغرب من كل صوب وحدب فكادت ان تؤذن شمسه بالزوال بين هذين العاملين لو لم تتداركه العناية الالهية وتقيض له رجالاً من آل عثمان

ان هذه الفئة الكريمة لم تكن اتربو على بضع الاف وقد اغتربوا غارب الاغتراب واتخذوا جهات «سكود» مقراً لهم فراراً من التسلطات التي جرّها التتر مما وراء النهر الى ضفاف الفرات وان شئت فقل الى حوالي الاردن فلم تبق ولم تذر بل جرفت ما صادفته من البلدان وكانت بلاءً عاماً لبني الانسان كأنها سيل عرم ثانٍ

في مثل هذه الظروف الحرجة والمواقف الخطرة وضع العثمانيون اول حجر من قوائم هذه السلطنة العظمى ولم تزل والحمد لله قويّة الدعائم متينة البنيان بالرغم عما اعترضها من

الانقلابات الشديدة والصدمات الهائلة خلال ستمئة عام منذ بدء تأسيسها

نعم ان هذه القوّة تعدُّ من الجزئيات لقلة عَدَدها وعِددها ولم تكن كفوءًا للقيام بهكذا عمل مجيد مهما كانت مكانتها من الجهد والجهاد ولكن ظروف الزمن وصروفهُ ساعدت ايضاً عَلَى حصول المرام ونوال القصد فقد كانت طوائف الملوك القائمة عَلَى اطلال السلوقيين الدوارس خائرة القوى مغلولة الايدي فلا تتمكن من مقاومة نموّ هذه الدوحة الغضة التى نشأَت اصولها بدماء الاعداء وتفيأَت فروعها بظلال السيوف

هذا من جهةٍ اما من الاخرى فلم تكن احوال امبراطورية الشرق التي لايمكننا تشبيهها الا بانقاض قلعة عظيمة تداعت الى السقوط واشرفت عَلَى الخراب لتقوى عَلَى الوقوف تجاه صولة العثمانيين اذ كانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ٠

اسس العثمانيون دولتهم في زمن كانت اذا لم تكن به الحصون والمعاقل سابحة على اديم الدماء لاتبقي مصونة من تعرضات الاعداء عَلَى حد قول القائل :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق عَلَى جوانبه الدم

والحرب لم تكن من بواعث الخراب ومسببات الدمار كما هي اليوم بل كانت من الوسائط الآيلة لحفظ كيان المملكة واعلاء شأنها لما تتضمنهُ من الغنائم والاسلاب فتضمن الخسائر التي تحدث عادة بالنفوس والنفائس بل تزيدها علَى طريقة الفائض المركب

وفي القرن السابع من الهجرة النبويه نصب السلطان عثمان علم السلطنة علَى قمة صرح الاستقلال بعد ان حكم ورسم مدة بصفة امير

« واي علم ذلك العلم اذ لو نظر اليه المرء لخاله الهلال في هالته ورأى بين طياتهما ينبي عن التحولات الكبيرة في جو السياسة وتلا سطوراً تفيد ما سيكون للعثمانيين من عظيم المستقبل وعظمته المقبلة

واذا رايت من الهلال نموه ايقنت انه سيصير بدراً كاملا

هذا هو السلطان العظيم الذي اقام مع بضعة الاف من تابعيه عماد هذه الدولة فبلغ صوتها وصيتها الخافقين ودانت لها الدول وخضعت لاحكامها العادلة الرقاب وذلت لها الاعزة وبقي اسمه شعار فخر لنا الى اليوم وبعده حتى لو ذكر اسم «العثماني»

لقارنته صفتان عظيمتان من مميزات البشرية هما المروءة والجلادة

واعقب ذلك الملك العظيم السلطان اورخان وهو ثاني العثمانيين فكانت باكورة اعماله تدويخ بورسه وجعلها قاعدة للسلطنة بعد ان كانت تلك القاعدة صهوة الجواد ومعترك النزال. كان جل ما رمت اليه مطامع هذا السلطان توسيع نطاق الاسلام وجمع كلمته فاشتغل بفتح البلاد الاسلامية. اما الجيش فقد كان عَلَى غايةٍ من الدربة والتنظيم الى حد انه ما كان يرجع خائباً اذا حوّل عنان عزمه الى جهةٍ ما بل كان له النصر حليفاً والظفر اليفاً انّى توجه واين سار وكانت البلاد تدخل في طاعته افواجاً افواجاً قبل ان يبلغها صهيل خيله وقعقعة سيوفه. واعظم برهان واكبر دليلٍ نقيمه للقارىء الكريم لاثبات صحة ما ادعيناه ان سليمان باشا من افراد العائلة المالكة بدأ بفتوحات بلاد الروم «الروم ايلي» ومعه ثمانون غضنفراً ليس الاّ

لم يحرز العثمانيون هذا النصر المستمر والظفر المتمادي بمجرد صدفة او اتفاق بل ببذل المهج وبيع الارواح حتى ان علاء باشا اخا السلطان الاكبر والأحق بالاعتلاء عَلَى عرش السلطنة لمواهبه الذاتية فضلاً عن حقوقه الارثية تنازل لقبول منصب الوزارة

في عهد سلطنة اخيه الصغير حنانًا وشفقة منه على هذا الوطن العزيز وادار دفة الحكومة بحكمة باهرة ورسم لها خططًا قوية تمشي عليها في شؤونها الحيوية بعد ان كانت مسيّرة لا مخيّرة تجرى تبعا لدواعي الضرورة وبواعث الاحتياج · ثم احدث سلك الانكشارية واخذ يضم اليه الطالبين من اولاد المسيحيين (١) وبذلك أسس للدولة جندية عظيمة تلائم روح العصر وحاجات الزمن واكتشف طريقة مفيدة عادت بالخيرات والبركات بأمر تناسل الهيئة الحاكمة وتزايد نفوسها

ثم تعززت الوزارة بعده بخير الدين باشا وقد رقى سنامها من طلب العلم ولكنه قام باعبائها حق القيام واتى من ضروب الحكمة في فنون الحكومة ما يجعله فوق الكل ويشار اليه بالبنان

وبهمم هذين الوزيرين التي امتزجت بنوايا السلطان الحسنة ايما امتزاج تمهدت سبل الدولة والقت رواسيها فلم تعد اعظم

---

(١) ان تجنيد الجند من اولاد المسيحيين قاعدة كانت بدء امرها اختيارية ولكنها مع تقادم العهد اضحت الزامية اجبارية فكانت الحكومة تجمع الأحداث في ثكنات الانكشارية وهي اذ ذاك بمثابة دار فضيلة ومعرفة وبعد ان يتثقفوا ويتدربوا تخرجهم في الجندية

العوامل واكبر المؤثرات لتحرك منها ساكناً اوتزعزع منها ركناً

*

اما السلطان مراد ثالث العثمانيين بترتيب ادوار الحكومة فهو اولهم من حيثية ترتيبها وتنظيمها وقد اتخذ صحارى بلاد الروم ميداناً وسيعاً لاشهب جهاده فابلى بها بلاء حسناً وجعل اطراف اوروبا الشرقية مشرقاً للمعات سيوف حماسته · رافق ايام حياة هذا الملك العظيم سبع وثلاثون غزوة كبرى كان بها السعد خادماً له والنصر طوع ارادته وامتدت حبال انوار جهاده الى مايلي البلقان الكبير فنظمته في سلك املاكه ايضاً

ولما اتفق الصربيون والبلغاريون والمجريون وصاروا جسماً واحداً للوقوف تجاه المتحدين من مجاهدي الاسلام الساعين لنشر كلمة التوحيد اجتمعت الفئتان في صحراء قوصوه صال الامير يلديرم بايزيد وجال وبدد باشعة سنانه سحب العدو المتكاثفة فرجحت كفة النصر للعثمانيين لولاان هذا النصر اختتم بمصيبة عظمى وداهية دهياء الا وهي ضربة خنجر من عدو جريح قضت عَلَى حياة السلطان العظيم فذهبت روحه الشريفة الى

ربها وفيها آمال عظام ومقاصد جسام

بمثل هذا من بيع الارواح في معامع الكفاح اشترى لنا هؤلاء المؤسسون هذا الوطن وكأني بتربته قد امتزجت ذراتها بدماء الشهداء ولو اقيمت عظام اولئك العظام حوله لكان له منها اسوار منيعة وحصون متينة تقيه باس الاعداء

وماذا ربح العدو المغتال من هذه الطعنة النجلاء سوى جرح افئدة العثمانيين بأسهم الاسف الشديد ؟

نعم ان السلطان مراد تجرع كاس الشهادة ولكن قام مقامه السلطان يلديرم بايزيد فكان على حد قول القائل

اذا خلا منا سيد قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

وجه السلطان صواعق حملاته الى جهات البلغار ومكدونيا فاحرقت ما حولها ودكت حصون دفاعها بل انهكت كل قواها ومر من الشمال الى الجنوب كأنه شهاب ثاقب فلم شعث المسلمين وجمع كلمتهم المتفرقة ومزجها بالعنصر العثماني . ثم ومض برقه على ضفاف الدانوب فقضى ذلك النور الضئيل على ركن عظيم من المجر والبولونيين والفرنساويين هذا فضلاً عن انه اضطر اهل القسطنطينية لدفع الجزية تأميناً لحياتهم وحفظاً لارواحهم

ولكن جرت الرياح بما لا تشتهيه سفن الامال فبينا كانت همته الشماء ونفسه الابية تضعضع بقوة صدماتها اسس الحكومة انتصب امامه تيمورلنك الشهير كمغناطيس الصاعقة (١)

لم يكن من المحال او من خوارق الاحوال ان يغلب السلطان تيمورلنك لولا ان حوادث الكون عاكست آماله وشاكست اعماله فذهبت مساعيه سدى وطفئت شرارة جهاده

وقد يتبادر الى ذهن القارىء الكريم اعتراص ما بحق السلطان لعدم ملاحظته عاقبة امره مع تيمورلنك وهو عَلَى ما هو عليه من قوة البطش وشدة الشكيمة ولكن المنصف الحكيم لا يرى في ذلك ما يمس كرامة السلطان او يسّفه احلامه فقد :

يقضى عَلَى المرء في ايام محنته بان يرى حسناً ما ليس بالحسن

وقد يضطر الانسان لاختيار بعض الاحوال وركوب مراكب الاخطار خصوصاً اذا كان في مكانة سلطان عظيم تخفق راية استقلاله في السهل والجبل وتتمثل روايات نصره على

---

(١) يعني المولف بالصاعقة السلطان لان كلمة يلديرم بالتركية معناها الصاعقة (للعمرب)

مراسح الكائنات

قل لي بعيشك هل اخطأ السلطان بايزيد خطاء بيناً في مقاومته لتيمورلنك وتحت امرته (اي امرة السلطان) ذلك الجيش الجرار الذي لم يثلم حد سيفه البتار ابداً . الا يحق لبايزيد ان يعتمد على نفسه وجيشه ولم يخضع احد « حتى امراء القبائل » لتيمورلنك طوعاً بل كرهاً وقسراً

على ان تيمورلنك نفسه كان مسوقاً بحكم الضرورة لشن الغارة على البلاد العثمانية ليعيل من معه من الرعاع وكانت اذ ذاك ينبوعاً عظيماً تتدفق من جوانبه الخيرات ومخزناً عظيماً مملوءاً بالغنائم والاسلاب فمهما ابدى العثمانيون من صنوف الرعاية ورسوم الطاعة لتيمورلنك لم يكن ممكناً ردّ غارته الشعواء عنهم

ومع ذلك فقد افاد هذا الانكسار الحكومة فائدة كبرى لانه تلا عليها درساً مهماً من العظات والعبر وكان كالارض التي امحل زرعها وضرعها فجعلوها موطئاً لسنابك الخيل فاينعت زرعاً وعمت نفعاً لاننا لا ننكر ان الضغط والجبروت كانا ملازمين او هما توأمان بين ايدي امهات النصر وجاعلان العدل في معزلٍ عن الشعب ولم يرجع الامر الى نصابه ويعيد

المياه الى مجاريها الا هذا الانكسار

اما انجال السلطان فقد لعبت برؤوسهم سورة الشباب وحب الرياسة فاخذوا يطاحنون بعضهم بعضاً في سبيل الاستقلال فلم يكن نصيبهم الا خيبة الامل وحبوط العمل ولكن اصغرهم سناً واكبرهم لياقة ولباقة السلطان محمد الاول قد اعاد مجد الدولة وسؤددها واضحى المؤسس الثاني لاساساتها او كانه نوحها وروحها

كان هذا الشهم مع جند قليل من حاشيته عَلَى جبال آماسيه فادرك بثاقب فكره واصيل رايه درجة الخطر الذي يتهدد دولة آبائه واجداده واخذته هزة الاريحيه فنبذ راحته ظهرياً ودخل هذا المعترك الحيوى بروح غضة وعقل محنك وعرف من اين توكل الكتف فاستولى على جميع البلاد التى كان يدير زمامها اخوته بصورة متفرقة كما يقول الشاعر

وتفرقوا فرقاً فكل قبيلة ✲ فيها امير المومنين ومنبر

ولم يقف عند هذا الحد بل اخضع لحكمه بلاد البوسنة والصرب وقادها صاغرة وبهذا اخذت الراية العثمانية تتموّج عَلَى صفحات الماء وظهور البحار بعد ان كان مركزها قلاع البر

وحصونه٠

تعتري الانسان هزة العجب والدهشة لما يتصور ان العثمانيين اعادوا نفوذهم وسلطتهم بعد تلك الفترة الهائلة التي اضطرب بها حبلهم بل اختلط حابلهم بنابلهم وكادت ان تكون ضربة قاضية على حياة المملكة لان اعظم الدول واقوى الامم لم تكن لتنجو من مخالب مفترس عظيم كهذا

ان بعض المشتغلين بتشخيص علل احوال الامم زعموا بوجود عمر طبيعي للدول كسائر الافراد فجائت هذه الحقيقة مناقضة لهذا الزعم الباطل واثبتت باجلى برهان واسمى بيان ان كلّ جسم سياسي له حياة دائمة خالدة ومرجع الفضل بذلك للعثمانيين لانهم حلقة سلسلتها وابناء بجدتها بل اباء عذرتها

اما السلطان مراد الثاني فقد اضاف لهمته الحاكمية قناعة حكيمية لم تتسن لمثله من رجال السلطنة وما بالسهل ارضاء الضرائر وجمع النقيضين

فبينا كنت ترى همته الشماء تؤيد حكم القرآن في بلاد المورة مهد حكمة اليونان وتضطر بلاد البوسنه والالبان لدفع الجزية عن يدٍ وهم صاغرون تجد قناعته تحوّل اعنة افكاره عن مجاهدة

الاعداء الى جهاد النفس واعظم بها من آمال شريفة وغايات حسنة فقد ساقته الى التنازل عن عرش الملك الذي يفرّق الابن عن ابيه ويبعد الاخ عن اخيه وتركه الى نجله محمد خان الثاني ولكن ما عتم الاعداء ان اظهرو ما اضمروا انتهازاً لفرصة وجود الملك صبياً في ريعان الشباب ومقتبل العمر وتظاهرت اركان الدولة بعدم كفايته على اقتحام مثل هذه الاهوال لقلة خبرته في الامور فاضطر السلطان مراد ان يعود الى عاصمة ملكه وقام للحال بحربي وارنه وقوصوه اللتين ضربت بهما الامثال وكانتا مسك الختام لاعماله المبرورة (١)

*

ولما جلس السلطان محمد خان الثاني ثاني مرة جعل يمناه سلاحاً لكسر الاعداء وتسخير البلاد ويسراه وقفاً لنشر العلوم وبث روح الحضارة والعمران في المملكة فاعلى شان السيف

مما يرويه التاريخ عن شدة طبع الفاتح ومعرفته طرق الخروج من المآزق السياسية انه لما دعا اباه الى تخت المملكة ولم يجب الزمه بقوله ان كان هو ولي امر هذه المملكة فليسرع لانجادها وكبح جماح الاعداء عنها وان كنت انا ولي امرها فقد اوجب الله عليه طاعتي (للمعرب)

واوفى حق القلم

اختص بصفة جلاده عنوان الفاتح العظيم و برغبته في العلوم جعل عاصمة بلاده مستقراً لها

لا ننكر ان قوة باسه وشدة مراسه كانا في منتهى الدرجات حتى ان وزراءه وامراءه لم يامنوا شر عتابه وعقابه ولكن تلك النفس الابية التي كانت تود ان تجعل الملوك صاغرة لها وذليلة امامها ولا تقنع باسم الفاتح الكبير كانت تنحني باحترام لتقبيل يد احد العلماء وتقبل خطاب استاذها لها باسم محمد خالياً من كل اطراء ومديح

كان يحسن التكلم بست لغات (١) ويدرك غوامض كل فن وكفى بذلك عَلَى مكانته العلمية شاهداً ودليلاً

ولم ينتشر الدين المحمدي في عاصمة ملكنا اليوم (القسطنطينية) الا بالسيف المحمدي وقد سيّر سفناً في البر وقاد طليعة الجيش بذاته غير هيّاب ولا وجل فحصل عَلَى ذلك النصر الباهر الذي حاول كثيرون من قادة الاسلام ان يحرزوه

---

(١) اللغات التي كان يتكلم بها هي: التركية، العربية، الفارسية، العبرانية، اليونانية، اللاتينية

فلم يفلحوا وذهبت اتعابهم ادراج الرياح

وقد كان النصر عبده في الشرق والغرب والشمال والجنوب فلم يجد عدواً الا اباده وجيشاً الا كسره

توجه للشرق فخاض دلاله سوق منایاه وشرى وباع امبراطورية الشرق في طربزون بنداء واحد وداوى طبيب هيجائه رأس (حسن الطويل) بضربة واحدة

ومدّ في الغرب جذور سلطنته فبلغت سواحل فينيسيه واواسط الموره وادخلت كثيراً من جزائر البحر الابيض تحت ظلالها

وافتتح في الشمال اكثر بلاد الافلاق والبغدان والصرب والبوسنه والقروات الذين شقوا عصا الطاعة بعد ان كانوا مقيدين بعهود الجزية في عهد يلديرم بايزيد

وجمع في الجنوب (الاناضول) الكلمة الاسلامية حيث ازال من وجهها هاتيك العقبات الكؤود نعني بها حكومات القرمانيين وبعض طوائف الملوك

ولقد كان لهُ الاسم الكبير والتأثير الخطير في ارجاء العالم وانحاء المسكونة الى حد انه انتقل للعالم الفاني وملك مصر

يوجس خيفة من هول قوته ومملكة ايطاليا تتوقع شراً من قوة صولته

٭

ولما تولى بايزيد الثاني بعد ان اوقع اخاه السلطان جم في اشراك المصائب المشهورة والمذكورة بالتاريخ وخلا له الجو حارب مصر والبوسنه والقروات والبغدان حروباً طاحنة ولكن الحقيقة ان قوة الدولة كانت آخذة بالتقلص شيئاً فشيئاً فلما بلغ السلطان من الكبر عتياً فضل الانسحاب من السلطنة وحاول ان يلبس تلك الحلة العسجدية نجله السلطان احمد فهبّ السلطان سليم نجله الثاني في وجهه واستوى عَلَى عرش الملك قوة واقتداراً

هنالك قامت البلاد وقعدت وتاججت نار الغيرة الوطنية واستعرت وكانها قذائف كانت خلال الرماد في طيات الاراضي البركانية حال سكونها فلما وجدت مخرجاً اندفعت بكليتها

ان السلطان سليم هو اعظم عظيم اقلّته ارض هذه السلطنة واظلته سماؤها فقد كان بسمو مداركه وسعة اطلاعه وقراً ثقيلاً عَلَى الهيئة الاجتماعية البشرية وكفى بان يكون اسمه

زاجراً لكل الحوادث ومانعاً لوقوع الجرائم في بلاد اهلها تزمجر كالبحور الزاخرة وتزار كالاسود الكاسرة

كان يألف الحق و يأنف التمايق فلم ينج من سوط تاديبه المنافقون الذين يقلبون الحقائق و يذرّون الرماد في اعين الناس تحت ستار الاخلاص اما الذين كانوا يقابلونه بقوة الجنان وثبات الجأش مع صدق في اللهجة ومضاء في العزيمة فلم يكن ليضنّ عليهم بفيض فضله وجميل صنعه

وقد ضحى نفسه ومن هم في منزلتها من اصفيائه واخوته وذوي قرباه في صالح مصلحة حكومته ولم يراع في حركاته وسكناته دستوراً ما بل اتبع احوال الزمن ولوازم الظروف وكان من وراء ذلك ان تكللت نتائج اعماله التي لم ترق مقدماتها لدى الجمهور باكاليل التوفيق واتت بسلام دائم ولا غرو فان من شأن الحاكم الحكيم في الازمات والشدائد ان يسعى لتأمين فوائد دولته لا ان يرعى قواعدها المقررة واصولها المدونة

اما شجاعته فكانت مضرب المثل ولم يثنه عن عزمه لما اراد محاربة الشاه اسماعيل كون ذلك الزعيم قابضاً علَى ازمة

قلوب رجال الدولة العثمانية وضيعها ورفيعها بما احدثه من المذهب الجديد (الشيعي) جامعاً فيه قوتي الدين والدنيا بحيث صار اشد وطأةً وابعد صيتاً من تيمور لنك بل تقدم الى الامام مع ماية الف جندي ومنهم من اطلق عَلَى فسطاطه عيارات نارية ليحول دون مقصده هذا

وقد كان عَلَى غاية من الحزم والعزم حتى انه قاد جنده الذي لم يرضخ لاوامره في حروب الشيعة الى محاربة حكومة مصر وهي الجالسة عَلَى اريكة الخلافة الاسلامية

ولما عصا الانكشارية امره في بلاد العدو خاطبهم قائلاً « ان شئتم فارجعوا وانا اسير للحرب وحدي واصليها اذا بردت »

و بالفعل فقد ازال فرقة العباسيين الباقية بمصر والبس ملوك آل عثمان حلة الخلافة الاسلامية وشرف بلاده بضم الحرمين المحترمين اليها فغدت كعبة آمال المسلمين ومحط رحالهم

اذا نظر الانسان الى مدة سلطنته وغوائلها وآثار حكومته ومآثرها اعتراه العجب واستبعد وقوع كل هذا النجاح في مدة ثماني سنين ذهب اكثر من نصفها في دفع شر الدخلاء ورد كيد الاعداء

اما المبدأ الرئيسي الذي كان يملاء قلبه ويشغل ذهنه فهو جمع الكلمة الاسلامية وتوحيدها بضم اجزائه بعضها الى بعض واستحضار اسباب الفتح المطلق بضبط سواحل البحر الابيض من جهتي اوروبا وآسيا والاستيلاء عَلَى مضيق جبل طارق ولكن ما الحيلة وقد اغتالته ايدي المنون قبل ان يقبض بيده الحديدية عَلَى زمام هذا الكون

*

وانتقل من بعده صولجان الملك الى السلطان سليمان القانوني فكان اسعد الملوك العثمانيين حظاً واطولهم عمراً واعظمهم جاهاً بما تركه عهده من الآثار السيفية والقلمية وقد كان دور التكامل الحقيقي للعثمانيين

كان يسير في مواكب اجلاله التي تزري بالكواكب ولا يرجع الا بفتح مبين ونصر عزيز فبمسيره الى الشمال مراراً حلّ عروة القوى الاوروبية وفرّق جموعها وفتح بلاد المجر والاردل وغيرها وبسفراته العديدة الى الشرق اكتسح وان وبغداد وروان وشروان وتوابعها وحدّد للحكومة الصفوية الشيعية التي امتدّت من الفرات الى جيحون حدوداً لا تتعداها

وبينما هو في الغرب يحكم حلقات الحصار على عاصمة النمسه مع قوة عظيمه كانت احدى فرق جيشه في الجنوب قد اتمّت ضبط الخطة اليمانية وبينا ترى قسماً من اسطوله الضخم يسبح فوق البحر الابيض تحت امرة خير الدين باشا (بارباروس) فيصوب مراميه الى بلاد ايطاليا وجهات فينيسيا ويستولي عَلَى الجزر والسواحل ويدمر اساطيل الاعداء المتفقين تجد القسم الاخر تحت امرة سيدى علي يشق عباب البحر الهندي ويردد انغام الجدال مع اساطيل حكومة البرتغال

وقد احتمي بحماه كثير من ملوك اوربا فضلاً عمن استجار بجواره من ملوك الاسلام فقضوا بقية ايامهم بامان واطمئنان

ان كل قنطرة من قناطر المباني الضخمة التي اخذها بالضرب والحرب قوس نصر يدلّ عَلَى عظيم غلباته والشأو البعيد الذي بلغت اليه الحضارة في دوره

وكل صحيفة من الكتب التي الفت بزمانه تاريخ معتبر يدل عَلَى رقي العلوم وتجاوزها الجوزاء في عصره

ولا عجب في ذلك بعد ان كان الملوك العثمانيون الى ذلك الحين لا يلفظون انفاسهم المعدودة عَلَى اسرة الراحة والهناء بل بين

الكرّ والفرّ والنبال والنصال اما الشعب فكان جامعاً لقوة الارادة ومتمكناً من الاخلاق الفاضلة من الوجهتين الدينية والدنيوية

كيف لا نقول ان العثمانيين افتتحوا طريق نجاحهم بالسيف مما لم يتسنَّ لاحد من قبلهم ومنا حضر موءسسو هذه الدولة الضخمة من الشرق استوطنوا ضمن دائرة محدودة واخذوا بالتشعب عن ذلك الخط المستقيم فسطوا علَى البلاد ودوخوها بل سطعوا كالشمس فاناروها

افتتحوا البلاد والامصار و بذروا فيها بذور المعرفة وسقوها من ينابيع فضلهم فاصبحت زاهية زاهرة ترفل في مطارف العز المنيع والمجد الرفيع

نعم انهم لم يتمكنوا من تدويخ الممالك وتوسيع المطامع كبقية الامم الفاتحة ولكنهم اتوا من ضروب الفروسية وصنوف الشجاعة ما لا يخطر علَى قلب بشر فكان لسان حالهم يقول

الخيل والليل والبيداء تعرفنا والحرب والضرب والقرطاس والقلم(١)

و بالاجمال فان عهد هذا السلطان كان خاتمة اقبال العثمانيين ومقدمة ادبارهم الذي طرأَ بالتدريج علَى اساسات المملكة فزلزلها

---

(١) هذا البيت استشهد به المؤلف نفسه

ودعامات المجد فقوضها لان العثمانيين الذين كان مطمح نظرهم في ماضيهم اقامة اعمدة الاستقبال اصبح مطمع فكرهم بحاضرهم اضاعة الاوقات بمظاهر الاقبال فكان ما كان

لا يمنعنا كل ذلك المجد والتوفيق اللذين عاصرا ايام هذا السلطان العظيم ان نتكلم بحرية ضمير وفكر سليم عن ان بعض اعمال عهده كانت عرضة للنقد ومن جملتها القانون الذي وضع ليكون دستوراً للعمل في جميع طبقات الحكومة وكانت اكثر احكامه مناقضة للقوانين الطبيعية

ومن ذلك تمادي الملك في مظاهر الابهة والخيلاء التي كانت فوق احتمال الزمان وقتل بعض افراد الاسرة المالكة التي لها حق الارث في تخت المملكة وعدم السعي في تمكين الوصلة الاسلامية التى هي اعظم الاعضاء العاملة في جسم المملكة اذ ذاك وقبول اولاد الانكشارية في الجندية فاخلال اصول الجمع من اولاد المسيحيين الذي اتى بفوائد جمة ونتائج مرضية واخراج الطريقة العلمية عن مجراها الاصلي بتفضيل القديم على المستحق وعدم اعطاء كل ذي حق حقه ووقف بعض الاقطاعات الخاصة الى زيد وعمرو بعد ان كانت من اعظم موارد الدولة وتغير الاخلاق علىَ وجه عام وقيام

والرياء مقام الاخلاص والمجاملة مناب الحقيقة الى حد ان اصبح شيخ الاسلام يقابل اوامر السلطان ونواهيه بقوله «ما رآه السلطان حسناً فهو حسن» وكان من مثله في عهد السلطان سليم يقابله بهذه الآية الذهبية الشريفة «انه لا يحب الظالمين»

فبمثل هذه العراقيل الهائلة والموانع المهمة وقف الشعب لا يقدم قدماً الى الامام بل يؤخر اخرى بعد ان كان يطوي المراحل ويجتاز العقبات في سبيل الرقى ولا نريد بذلك ان نغض من كرامة السلاطين العظام ونترك الشعب فقد كانت احواله ايضاً خامدة هامدة ولكن الملوك كانوا كمرآة رعاياهم فحق ان يقال ان الكل في الهوى سواء

انتهى